بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس العشرون **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:09\11\2021 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

كان الكلام في الآية التاسعة في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]هذه الآية المباركة تستبطن رداً على ما كان يقصده أولئك الذين يشترون لهو الحديث، حيث إنهم كانوا يقارنون آيات الذكر الحكيم بتلك القصص والأساطير التي كانوا يدفعون بإزائها المال في بلاد الفرس والروم، وفي هذا نسبة الأساطير إلى الباري تبارك وتعالى، أن الآيات التي يدعى أنها نزلت على النبي هي في الواقع كأساطير الأولين، وليست واقعية وحقيقية، فلأجل ذلك ختم الباري تبارك وتعالى الكلام في هذه الآية بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهو عزيز لكونه مقتدراً، ولأجل ذلك يعد، الذي يعد هو المقتدر، هو الذي يستطيع أن ينفذ ما يعد به. وهو الحكيم باعتبار أنه يدبر الأمور على موازين الحق، ويضع الأمور في نصابها الصحيح.

ثم أراد أن يفصل ما ذكره من عزته وحكمته فجاءت الآية العاشرة لتقول: ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الأرض رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريم﴾[2] في الواقع هذه الآية العاشرة جاءت لتفصّل عزة الله سبحانه وتعالى وحكمته التي ذيلت بها الآية السابقة، لماذا هو العزيز الحكيم؟ جاءت الآية تقول: ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ هذا التعبير تكرر في القرآن الكريم مرتين، مرة في هذه السورة، ومر في سورة الرعد، في الآية الثانية، يقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾[3] فكأنه أن يقول لهؤلاء الناس، ومن خلالهم لجميع أولي العقول: أن عزة الباري سبحانه وتعالى وقدرته وحكمته تثبت لكم من خلال التأمل في أفعاله ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ كل إنسان ينظر إلى ما فوق رأسه

---

[1] لقمان 9
[2] لقمان 10
[3] الرعد 2

فيرى ما نسميه في اللغة والعرف سماء، سواء كنا من علماء الفلك أم كنا من عوام الناس الذين لا حظ لهم من العلم، الجميع ينظر إلى هذه السماء، فهي برهان عام لا يختص به إنسان دون إنسان، هذه السماوات مهما كانت حقيقتها، كنا نعرفها أو لا نعرفها، هي قائمة، هي الثابتة فوق رؤوسنا، ثم يقول: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ في قوله ﴿تَرَوْنَها﴾ يحتمل احتمالان:

الاحتمال الأول: ولعله الأظهر، أن العمد لا نراه، هذه السماء تكون ثابتة على عمد لكن نحن لا نراه ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ فهي وصف لعمد.

الاحتمال الثاني: أن تكون ﴿تَرَوْنَها﴾ راجعة إلى السماوات، أن هذه السماوات ترونها بغير عمد، وكل من ينظر إليها لا يرى أعمدة تستند عليها هذه القبة الزرقاء، فهي محل نظر للجميع ورؤية للجميع أنه لا يوجد لها أعمدة. هل فكرتم من رفعها؟ من أمسكها أن تقع؟ بما فيها من مجرات وأفلاك ونجوم، الصغير منها ربما يكون أكبر من الأرض بمرات.

على كل تقدير، وعلى أي معنى من المعنيين حملنا هذه الآية المباركة، فهي دليل على عزته وحكمته.

وبدأ بالسماء؛ لأن السماء عند العرب هي دليل على العزة والرفعة، ولأجل ذلك يقول الفرزدق:

إِنَّ الَّذي سَمَكَ السَماءَ بَنى لَنا بَيتاً دَعائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطوَلُ

فلماذا اختار أن الذي سمك السماء؟ بنى لنا بيتاً أعز وأطول، أعز لأن السماء عند العرب هي دليل الرفعة والعزة، فجرت الآية على سنن اعتقادهم، فبدأ في ذكر آياته بذكر السماء بلا أعمدة يراها الناس، وحتى لو كان لها أعمدة، فإن السماء حينئذ مع وجود علل ظاهرة لها لا تستغني في وجودها عن الله سبحانه وتعالى؛ لأنه هو الذي خلق لها الأعمدة.

من هذه الرحلة السماوية يرجع بالإنسان إلى الأرض، يرجع بالإنسان إلى المكان الذي يعرفه ويألفه، فيقول: ﴿وَأَلْقى فِي الأرض رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ﴾ أي وضع في هذه الأرض جبالاً لتثبيتها، مهما كانت الآن حقيقة الجبال والتضاريس، صدقت نظرية علماء الجيولوجيا أو لم تصدق، أنها ناشئة من الغازات التي تخلو في جوف الأرض فتتكون من خلالها التضاريس وتصبح هناك جبال، على كل تقدير هذه الجبال هي أوتاد لحفظ الأرض من أن تتحرك بنا، لأجل ذلك العلامة الطباطبائي رحمة الله عليه في

هذه الآية المباركة يقول فيها إشارة إلى الترابط بين كثرة الجبال وقلة الزلازل، وربما هذا يكون معروفاً بالتجربة. على كل تقدير ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أن تميد أن تتحرك وتذهب يمنة ويسرة.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ آية ثالثة من آياته تبارك وتعالى، أنه نشر في هذه الأرض، وبث في هذه الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع البشر والحيوانات وكل ذي روح ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ نلاحظ في هذه الآيات الثلاث، كان الباري سبحانه وتعالى يتكلم بصيغة الغائب، ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ من هو الذي خلق؟ هو، بصيغة الغائب وهو الذي يرجع إلى قوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿وَأَلْقَى﴾ من الذي ألقى؟ هو بصيغة الغائب ﴿وَأَلْقَى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ﴾ أي هو ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ ثم في الآية الرابعة من آيات عظمته يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ التفت من الغيبة إلى التكلم، وهذا ما يعبر عنه ابن الأثير الحلبي بشجاعة العربية، هذا الأسلوب يسمى شجاعة العربية، تكون في أسلوب تنتقل إلى أسلوب آخر، ومن أبرز أساليب الشجاعة العربية ما يسمى بالالتفات، التفت من الغيبة إلى التكلم، وهذا له نظائر كثيرة ومتعددة في القرآن الكريم، ما نقرأه في كل يوم سورة الفاتحة، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الرحمن لا نخاطب، بل نتكلم عن شيء غائب ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يعني هو، إلى أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقف في مقام الخطاب بعد أن أجرى على لسانه المدح والتمجيد للباري تبارك وتعالى والاعتراف بأنه مالك الناس والعالمين في يوم الدين، بعد ذلك صار العبد لائقاً لكي يقف في محراب مخاطبة الله، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

في هذه الآية المباركة يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: أنزلنا المطر من جهة العلو ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ بعد أن ذكر الآيات الثلاث في مقام بيان عزته وحكمته وعظمته، وكانت هذه الآيات ترتبط السماء والأرض ومن يعيش عليها، أما السماء ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أما الأرض ﴿وَأَلْقَى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أما من يعيش عليها ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ فأراد في الآية الرابعة أن يربط بين هذه الآيات الثلاث، وكان بقاؤها- هذه الآيات الثلاث- مشروطاً بوجود عنصر الحياة، وعنصر الحياة هو الماء؛ لأهميته انتقل من حالة الغيبة إلى حالة التكلم، فقال: وَأَنْزَلْنَا مِنَ

السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريم﴾ السماء التي هي الآية الأولى من آيات عظمة الله، فيها يعني الأرض التي هي الآية الثانية من آيات عظمة الله، والغرض من كل ذلك بقاء تلك الأجناس التي بثها في الأرض، والذي على رأسها الإنسان ﴿فَأَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريم﴾ حتى النبات يتزاوج، حتى النبات يكون تكثره بوجوده ذكر وأنثى، وهذا ما أثبته العلم الحديث، سواء كان الذكر والأنثى في زهرة واحدة أم كان الذكر في زهرة والأنثى في أخرى أم كان أحدهما على نبتة والآخر على نبتة أخرى، فإن العلم أثبت أنه لابد من التلاقح بين الذكر والأنثى، ومن عوامل التلاقح الرياح وبعض الحشرات التي تنقل من نبتة إلى نبتة أخرى. فإذن ﴿فَأَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريم﴾.

آيات أربع في صفحة الخلق، هذه الآيات مدبرة بأحسن تدبير، سماء ترتبط بالأرض ارتباطاً يجعل هذه الأرض صالحة للعيش عليها، وهذا العيش لابد أن يكون بوسيلة تنزل من السماء إلى هذه الأرض بقدرة الله سبحانه وتعالى وبعظمته، وهذا الماء الذي ينزل إلى الأرض من أهم فوائده أنه يمد الإنسان بما يغذيه، ويمد الدواب بما يغذيها ﴿فَأَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريم﴾ هذا الزوج معطاء، يتصف بالكرم، هنا الكرم يمكن أن يحمل على معنيين، على معنى النفيس، وعلى معنى الجود، لكن الأقرب هو الاحتمال الثاني، فهذا النبات معطاء بشتى أنواع الدواب، فهو علف، هو أكل، هو لباس، هو بناء، وما شابه ذلك، كله تستفيد منه، فهو معطاء، كل ذلك بعظمة الله ﴿هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُوني ماذا خَلَقَ الَّذينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ هذه الآية جاءت مناسبة لهذا السياق، وهي رد واضح على أولئك الذين يشترون لهو الحديث.